مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ISSN: 1112- 7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلد: 17 عدد: خاص جانفي 2022
العنوان: الهيئات الحرفية بمدينة الجزائر في العهد... ص.ص 792- 809.

الهيئات الحرفية بمدينة الجزائر في العهد العثماني

سرحان حليم
جامعة محمد بوضياف- المسيلة
halim.serhane@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال: 2020/06/10؛ تاريخ القبول:2020/11/14

Craft corporations in the city of Algeria in the Ottoman era

Halim serhane

Absract :

This article deals with artisan corporations in the city of Algiers in the Ottoman period, as part of modern historical studies. As one of the important forces in the country's economy, it has played an important role in its history, which has lasted for nearly three centuries. There is no doubt that people's lives were closely linked to what they provide them with social services in accordance with agreed laws and customs. It is axiomatic that it be organized in a hierarchical manner in which the function of each of its elements is determined and its tasks are set within the workshop. The crafts were classified according to their importance in the perspective of those interested in the economy from the heads of craftsmen at the level of the central authority in the city of Algiers.

Key words : Craft corporations; The Secretary; market; The lab; Handworker.

الملخص:

تعالج هذه المقالة الهيئات الحرفية بمدينة الجزائر في العهد العثماني، ضمن الدراسات التاريخية الحديثة. باعتبارها إحدى القوى الهامة في اقتصاد البلاد، حيث مارست دورا مهما في تاريخها الذي ناهز ثلاثة قرون ونيفا من الزمن. ولا شك أن حياة الناس كانت مرتبطة بها ارتباطا وثيقا لما تقدمه لهم من خدمات اجتماعية وفقا لقوانين وأعراف متفق عليها. ومن البديهي أن تكون منظمة بطريقة تراتبية تحدد فيها وظيفة كل عنصر من عناصرها وتضبط مهامه داخل الورشة. وقد صنفت الحرف حسب أهميتها في منظور المهتمين بالاقتصاد من لدن أرباب الصنائع على مستوى السلطة المركزية بمدينة الجزائر.

الكلمات مفتاحية: الهيئات الحرفية؛ الأمين؛ السوق؛ المعمل؛ الحرفي.

مقدمة:

زخرت مدينة الجزائر تحت الحكم العثماني في جميع مراحله السياسية، وتحولاته الاجتماعية بالعديد من الحرف والصنائع، التي روعي وضعها في أماكن بعينها حتى توافق طبيعة النشاط الاقتصادي الممارس فيها مثل سوق الكتان، وسوق العطارين، وغيرها، وكل حرفة تحتل شارعا أو دربا بعينه داخل السوق أو في أحد الأحياء الذي كان يحمل اسم الحرفة الموجودة فيه. وهكذا بات من الضرورة بمكان تنصيب مجموعات منتخبة من أصحاب هذه الحرف تتوفر فيهم جملة من الشروط أقرها الديوان لضمان تسيير شؤون كل حرفة وإدارتها، والسهر على السير الحسن للعمل داخل الورش بما يتماشى مع قوانين، وأعراف البلد. فيا ترى بعد هذه المقدمة الموجزة ما هي هذه الهيئات؟ ومما يتكون تنظيمها؟ وما هي أصنافها؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة المحورية الوجيهة فيما يلي:

أولا_ الهيئات الحرفية في مدينة الجزائر:

عرفت مدينة الجزائر كغيرها من المدن الإسلامية التابعة للدولة العلية العثمانية العديد من الهيئات الحرفية التي كان يطلق على أفرادها اسم أهل الحرفة (نور الدين عبد القادر، 2006: 146)، و أهل الصنعة، وأربابها شريطة أن تكون منظمة بطريقة صارمة (عبد العزيز لعرج، 2008: 61). وقد كان عدد هذه الهيئات يختلف من مدينة إلى أخرى حسب نشاطها الحرفي، والتجاري. ويبدو أن أندريه ريمون اتخذ هذا العدد مقياسا لأهمية هذه المدينة في العهد العثماني. ولعل أبرزها تلك المخصصة للحاكة والخياطين، وصناع الأحذية (André Raymond :1979, 115-134). وهي عند جمهور المؤرخين المتأخرين كافة بمثابة النقابات، والاتحادات المهنية (عبد الرحيم عبد الرحمن، 1982: 83)، وتسمى أيضا الطوائف التي تشرف على تسيير شؤون كل حرفة وتنظيمها تبعا للروابط الحرفية، والمهنية، وتنظيماتها(ناصر الدين سعيدوني، 2009: 350). ولا شك أنها لم تكن تخضع للسلطة المركزية بمدينة الجزائر خضوعا مباشرا، الشيء الذي يدفعنا للقول أنها كانت تتمتع بالاستقلالية إلى حد بعيد (سرحان، 2014، 111). غير أنه يتعين على هذه الهيئات دفع مقدار معين من

المال على شكل ضريبة إلزامية عن ممارسة النشاط الحرفي إلى خزينة الدولة، تتراوح بين قطعة نقدية إلى ثلاث قطع وأكثر من ذلك على المحلات، والورش مرة كل شهر ويتم تحديد المبلغ مسبقا (Xavier Yacono, 1966 : 240). وقد يتدخل الداي أو من يقوم مقامه في بعض الحالات الخطرة، مثل حالة الغش في موازين، ومكاييل السلع، وتكون العقوبة إزاء ذلك الموت المحتم، وأحيانا تفرض على المخالفين دفع غرامات باهظة جراء انتهاك قانون البايلك كما أشار إلى ذلك لوجيا دو تاسي بالتفصيل (Laugier de tassy,1725 : 294). أو عندما يتمادى التجار في رفع أسعار المنتجات المصنعة محليا على مستوى المدينة دون سابق إنذار (أحمد السليماني، 1994: 8). وزيادة على التعاريف سالفة الذكر كانت هذه الهيئات تعرف في الجزائر باسم الجماعات (مصطفى بن حموش، 1999: 166). بحيث تتجمع كل هيئة في حي، أو درب واحد داخل أحد الأسواق الخاصة بنوع من أنواع الحرف، وتتسمى بالحرفة ذاتها التي يمارسها أفرادها (André Raymond ,1981 :78)، الشيء الذي يجعل القيسارية أي المركز التجاري، والسوق في قلب المدينة يقسم بين مختلف التنظيمات المهنية كالدرازين، والإسكافيين، والدباغين، والصباغين، وما إليها من صنائع للضرورة الصحية، ونظافة النسيج العمراني، والحفاظ على البيئة (لويس ماسينيون، 1973: 14). و يمكننا أن نرى بوضوح أن الحرف كانت تأخذ أهميتها، وتنال حظها من الاهتمام بحسب عدد العاملين المنخرطين فيها حسبما ذهب إليه صاحب التشريفات(Albert devoulx, 1852 : 23). فلم يكن في مدينة الجزائر سوى 33 طائفة حرفية أبرزها طائفة النساجين، وهو عدد بقدر ما هو قليل إلا أنه يتناسب مع الأهمية الضئيلة للمدينة، ومع ضعف نشاطها الحرفي مقارنة بما كان سائدا في بعض المدن الخاضعة للسلطة العثمانية مثل حلب، والقاهرة على سبيل الذكر (محمد الشناوي، 1980: 9) نتيجة الاهتمام بالملاحة البحرية ونشاط الغزو البحري في ظل تنامي تحرشات الأساطيل الإسبانية والبرتغالية بالشواطئ الجزائرية بعد سقوط الأندلس وكثرة غاراتها بعد ذلك. أما بعض الحرف التي كان ينظر إليها عامة الناس

على أنها وضيعة مثل الدباغة، والصباغة وغيرها من الأعمال اليدوية الشاقة، فحينذاك يعين لها الغرباء عن المدينة للنظر في شؤونها و القيام عليها، وعلى تسييرها. وكانت معظم النسوة في المدينة يقمن ببعض النشاطات المهنية ذات الصلة، لكن ممارستهن كانت تتم في غالب الأحيان داخل المنزل ، في فضاء عائلي وبمعزل عن تلك الهيئات (Roger Le tourneau, 1957 : 49)، وهي تتمثل عادة في الطرز، وغزل ألياف الصوف والحرير، والحياكة، والنسيج الذي يعتبر بحق عمل يدور في وسط عائلي محض لا يتطلب الانخراط في التنظيمات الحرفية (سرحان، 2014، 112).

فالهيئات الحرفية إذا كانت تتألف من جميع العمال الذين يمارسون النشاط نفسه، فكل جماعة تختص بممارسة حرفة معينة، وينقسم هؤلاء الحرفيون الناشطون في هذا الإطار إلى فئات سنتناولها على النحو التالي:

ثانيا_ العناصر المكونة للهيئة الحرفية:

بعد تطرقنا للهيئات الحرفية بمدينة الجزائر بوجه عام خلال العهد العثماني، لزمنا إذ ذاك أن نتناول بالدراسة مكونات عناصرها حسب أهميتها فيما يلي:

1_ أمين الحرفة:

يمثل السلطة العليا للحرفة، والوصي على الصناع، أي أنه يتمتع بالمسؤولية التامة على إدارة دواليب الورشة الحرفية، أو التجارية، ويكون تحت رعاية قايد البلد الذي يعتبر أعلى موظف في الديوان (عائشة غطاس، 2007: 142) وهذه الورشة هي بمثابة مؤسسة قد تكون صغيرة ومحدودة العدد، على شاكلة الورشة أو المعمل المسير من قبل الشخص ذي المسؤولية الوحيدة. وغالبا ما يتعلق الأمر بإدارة طراز صغير يتكون من عاملين إلى عشرة نفر، زيادة على المتعلمين الذين يدعمون طاقمه الفني. ويسمى مسؤول الورشة برب المهنة، أو بالشيخ، والرئيس، والعريف، والمعلم أو الأسطى كما هو معروف في الولايات العربية الخاضعة للسلطة العثمانية (سهيل صابان، 2000: 37) .

وتجدر الإشارة إلى أن لقب الأمين استعمل بكثرة في مدن تلمسان، والجزائر، وقسنطينة، وغيرها، وهو سابق للوجود العثماني كما يتبين لنا من الرسالة التي بعثها سكان مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني يلتمسون منه تقديم العون لهم لدفع الخطر الإسباني الذي حاق بهم، جراء تكالب الأسبان عليهم حيث ورد فيها: "... رسالة القاضي، والخطيب، والأئمة والفقهاء، والتجار، والأمناء...". وعلى عكس الهيئات الحرفية الأخرى، اختار البعض تسمية معلم المهنة بالباش، الذي يعني رئيس المهنة، كالباشترزي القائم على مهنة الطرز (عائشة غطاس، 2007: 142) والذي يدل بالفرنسية على رئيس الخياطين.

ولا ريب أن عدد هؤلاء الأمناء تضاءل مع مرور الزمن، حتى أن الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان لاحظ ذلك ودونه في رحلته إلى الجزائر كالأتي:" لا يوجد اليوم بالمدينة كلها إلا ثلاثة معلمين من الخياطين العرب"،(هاينريش فون مالتسان، ج1، 2008: 117) وكان الأتراك طبعا أحسن زبائن أولئك الخياطين الغرناطيين واليهود، في تلك الظروف على الأقل بخصوص الورش التقليدية، فالمعلم لم يكن دائما من الموسرين، فبالكاد يتحصل على راتب يزيد قليلا عن راتب الصناع، وهو يعمل معهم ضمن فريق منسجم للغاية، ويتمتع بالاحترام الذي يضمن له مكانة لائقة في فئة العمال، والحرفيين، وفي المدينة أيضا. وهو بهذا التوصيف رجل مرموق اجتماعيا، وفي أعلى منزلة يراها الناس مقارنة بوضعه المالي متمثلا في أجره الزهيد.

غير أن هناك من يرى رأيا مخالفا تماما لهذا الرأي مفاد ذلك أن أرباب الصناعة يعيشون عيشة ميسورة وراقية بسبب الرواتب المرتفعة، والأرباح العالية التي يجنونها نظير ما يبذلونه من جهد، وينجزونه من أعمال متقنة (سرحان، 2014، 113). وكان التعيين في منصب الأمين أحيانا يقتضي من المترشح لشغل هذا المنصب دفع مقدار معين من المال يحدد من طرف الهيئة الحرفية التي ينتمي إليها، وأحيانا أخرى يجتمع أمناء الطوائف الحرفية عند اللزوم، من أجل انتخاب أمين أمناء الهيئات الحرفية ومساعده، الذي يطلق عليه لقب

خليفة، وقد يكون الاجتماع المذكور غير محدد بفترة زمنية، أو مناسبة، فلا يعين أمين جديد على الهيئة الحرفية ، إلا بعد وفاة الرئيس المداوم، أو في حالة تقديم استقالته، وشغور منصبه، أو عندما يقال من قبل السلطة الحاكمة لما تسخط على سلوكاته، ويصبح غير مرغوب فيه، أو حينما يتجاوز حدوده، ويتعدى على زملائه فيأتي بأعمال خارجة عن المألوف، إذ ذاك يتدخل هؤلاء المتخاصمون ويقومون بخلعه من وظيفته، وتعيين أحد الأمناء مكانه.فلا يختار لتولي المنصب إلا الأمين المخلص المطلع على أصول الحرفة، التي قوامها مجموعة القواعد الشرعية المقسوم عليها بقسم مشهود، والمعمول بها (الشويهد، 2006: 39). فلا يهم أن يكون صغير السن، شريطة ألا يتجاوز عتبة الثالثة والعشرين من عمره. هذا دون أن ننسى بأنه لا يعين أمينا على الحرفيين إلا بموافقة، ووصاية السلطة الحاكمة، وإقرارها بحضور القاضي الشرعي (عائشة غطاس، 2007: 143)

ومن أشهر الأمناء مصطفى بن أحمد بن محمد الشويهد، ولقد توارثت عائلة الشويهد هذا المنصب أبا عن جد منذ أوائل القرن السابع عشر إلى نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر وكان أول من تولاه منهم سليمان الشويهد في الفترة الممتدة ما بين 1609-1626م حيث حضر عام 1609 اتفاقا بين جماعتي بني ميزاب والكواشين مع كل من كاهية البايلك وضابط من رتبة أياباشي (عائشة غطاس، 2007: 136).ومن الذين أشرفوا على فئة الحرارين بمدينة الجزائر، نجد الأمين الحاج علي، والأمين حسين بن محمد بن غزالة، والأمين عبد القادر بن برناز، والحاج علي الشريف بن عبد الله، ولا نغفل أن نذكر عائلة بوعينين التي تبوأ أفرادها هذا المنصب لسنوات مديدة. زيادة على هذا نجد عبد الله محمد الشويهد أمين السمارين المشتغلين بتسمير النعال، والحاج عمر أمين الحدادين وغيرهم (محمد الشويهد، 2006: 87).

وليس غريبا أن يكون المعلم من أصل أجنبي، وقد يتطلب الأمر أحينا أن تلتمس السلطة العثمانية من حاكم مدينة الجزائر إرسال أحد المعلمين الأوروبيين المتمرسين ليشتغل في دار صنعتها، نتيجة

لمهارته وإتقانه العمل الذي خوله المكانة الرفيعة، وذيوع الصيت في المجال الصناعي خارج تراب الجزائر، ودليلنا في ذلك أن حاكم الجزائر تلقى رسالة من السلطان العثماني جاء فيها ما نصه " حكم إلى أمير أمراء الجزائر بإرسال المدعو ماستورولبرو معلم في فن الحدادة إلى الأستانة ليستخدم في الترسانة العامرة"(مهم دفتري، علبة رقم: 30). ولعله كان خبيرا في صناعة الدروع، أستقدم إلى مقر الدولة العثمانية بقرار رسمي، للمساهمة في رفع إنتاج الصناعة الحربية. ومن المهام التي يقوم بها أمين الحرفة ما يلي:

أ_ النظر في شؤون الهيئة الحرفية، والسهر على مراقبة جودة ما ينتجه الصناع، (Mouloud Gaid, 1991, 191)، زيادة على تقديم الدعم المعنوي لأي صانع تابع لحرفته، لما يتعرض للمرض، أو يفقد زوجته. ففي مثل هذه الحالات، يسارع الأمين إلى تنظيم حملة جمع التبرعات من لدن أعضاء الهيئة الحرفية، ثم يقدم حاصل تلك العملية إلى عائلة المريض، أو الميتة، دون الحديث عن المعونات الفردية التي يتقدم بها أفراد الورشة كل حسب طاقته.

ب_ يستدعى من طرف المحتسب، لتقديم خبرة حول جميع المنازعات التي تتعلق بحرفته، فإذا كان الشيء المتنازع عليه بسيطا، يلتمس منه إبداء الرأي، الذي يتبع برأي المحتسب، و حينما يكون الأمر عسيرا، فإن الأمين يطلب بعض الوقت لمراجعة مجلس الحرفة بغية اتخاذ قرار يبعث به إلى المحتسب للنظر فيه. مما يجعل الأمين شبيه إلى حد ما بالقاضي الذي يفصل في جميع الأمور التي تخص حرفته. وتبعا لهذه المهمات فقد كان للأمناء سلطات قضائية وتنفيذية تسمح لهم بالحكم في القضايا الداخلية للهيئة الحرفية، فلقد كان لبعض الأمناء شرطتهم الخاصة، وسجونهم بحيث لا تتدخل السلطة في أحكامهم (مصطفى بن حموش: 167).

ت_ يكون همزة وصل، بين ممثلي الأحياء وهيئته في التعامل مع السلطة الحاكمة، فهو المعني بتقسيم وتحصيل الرسوم الخاصة التي يمكن أن تفرض على الهيئات الحرفية، قصد تقديم هدية للسلطان في مختلف المناسبات الدينية، التي تقدمها جميع المدن والقبائل الوفية

للبلاط، وله دور معتبر في تقسيم الأدوار في عمل السخرة التي تفرضها الدولة، وهذا غيض من فيض المهام التي يؤديها أمين الحرفة على رأس الهيئة الحرفية التي ينتمي إليها في مختلف الظروف، والمناسبات والأعياد العادية والاستثنائية على مدار السنة.

2_ الحرفي:

يطلق عليه الأجير، والصانع الذي يتقن مهنته، ولم يكتسب بعد مهارة المعلم حسب تعبير عائشة غطاس، ويتفانى في إنجاز المهام الموكولة إليه على أكمل وجه مهما كان طابعها (عائشة غطاس، 2007، 154). علاوة على الأمانة، والإتقان نظير أجر يومي، قد يقل أو يزيد، شريطة ألا يقل عن كفايته من الطعام والثياب (عبد الهادي النجار، 1983: 30) ، وينال الأجر بحسب العمل المبذول لقوله تعالى: **" ولا تبخسوا الناس أشياءهم"** (سورة الشعراء، آية: 183). وتمثل فئة الحرفيين، أو الفعلة، والأساكفة نسبة معتبرة من المشتغلين في المعمل، فهم أكثر عددا من المعلمين والمتعلمين (Corinne Chevalier, 1986, 72-75).

ويكون الحرفي وفي أيضا، فلربما بدأ مشواره المهني كصبي عند معلم حرفته، ثم لما أصبح مؤهلا اصطبر على العمل عنده، خاصة إذا كان هذا الأخير ذو طباع جيدة. ولما يكون المعلم غنيا فإنه يمنح لخدامه وعماله السكن ويتم توفير الإيواء لهم حيث يخصص مجموعة من الدور في أحد دروب المدينة. وفي حالات أخرى ينسحب الصانع من الورشة إلى غير رجعة، إذا حدث وأن طفت على سطح العلاقات الثنائية بين الرئيس ومرؤوسه، نتيجة لبوادر الكراهية أو الحقد الذاتي المتبادل، وليس نتيجة لخلافات مالية محضة، أو لظروف العمل السيئة التي من شأنها تعكير الأواصر الحرفية. لمثل هذه الدواعي يترك الصانع أو الحرفي صاحب العمل. وهذا الإجراء المتخذ من طرف شخص واحد يمكن فهمه في تلك الورش حيث يتعايش الجميع، ولا تستقيم الحياة المهنية ما لم يكن هناك انسجام تام بين أفراد الفئة الحرفية الواحدة. كما يكون في متناول الصانع أن يرتقي في سلم وظيفته ويصبح بدوره معلما للورشة بدلا عن صاحبها، عندما لا يكون

لهذا الأخير ابن يرثه في منصبه، أو لما يصير بحوزته نصيب من المال قمين بأن يشتري عدة العمل، وأدوات الصناعة، زيادة إلى المواد الخام، ثم أنه إزاء هذه الوضعية المريحة يكتري محلا، ويستخدم بعض الحرفيين المؤهلين، ويستقل بالعمل في محترفه الخاص. وليس من الغضاضة في شيء أن يتولى الحاكم الباي أو غيره شخصيا تشجيع أصحاب الحرف النبيلة مثل صناعة الذهب، والحرير ووضعهم في مرتبة الأشراف والفقهاء. وفي بعض الأحيان كانت السلطة المركزية في الجزائر تلتمس إيفائها ببعض الحرفيين، والصناعيين المهرة من إسطنبول مثل ما ما جاء في محتوى رسالة حسن باشا إلى يوسف خوجة بإسطنبول (الرسالة رقم، 55).

3_ المتعلم:

يطلق عليه في بلاد المشرق تارة تلميذ في المفرد، وتلاميذ بصيغة الجمع، أو غلام، أو متدرب ، أو صبي، وصبيان، وصبية تبعا لعددهم تارة أخرى، للدلالة على أولئك الذين يعملون في الورش بغرض تعلم أسرار المهنة والتدرج في دواليبها. أما في مدينة الجزائر فيطلق عليه المتعلم، وهنا يمكن أن نذكر في فترة وجود العثمانيين نموذجا عن هذا الأمر جاء فيه أن أحمد بن محمد بن زكري لما مات أبوه وتركه صبيا في كفالة أمه " أتت به يتعلم الصنعة وأدخلته في طراز عند معلم ليتعلم الحياكة، حتى تعلم النسيج". وهو المبتدئ في الصنعة، ويأتي في أسفل الهرم الوظيفي لنظام الهيئة الحرفية (عائشة غطاس: 154). فلقد كان الريس حميدو في مقتبل الشباب متدربا عند أحد أشهر مفصلي الملابس في مدينة الجزائر(علي تابليت، 2006: 3). يستهل العمل بتقديم بعض الخدمات المتواضعة، وفي الوقت ذاته يتعين عليه أن يراقب عن كثب حركة المحترفين وهم يقومون بنشاطهم اليومي بمهارة عالية، يتقدم منهم رويدا، ليفيد من خبرتهم، ثم يتناول في يديه الأدوات البسيطة ليستأنس بها، ويستخدمها في جميع العمليات الموكلة إليه، مما يدفع المعلم أحيانا أن يمنحه مكافأة تكثر أو تقل برضاه عن العمل المنجز (عبد الهادي النجار، 31-32) ، ويقول الشويهد في السياق ذاته:" وعلى المعلم أن يجزي المتعلم في محله"

(محمد الشويهد: 136). وبعدها يتدرج في سلم العمل، ويصبح يتقاضى أجرا أسبوعيا مقابل ما يقوم به من عمل منتظم ومتقن، و ارتقاؤه إلى مصاف الحرفي لا يرتبط بأي امتحان مهني بقدر ما يرتبط بصاحب الورشة الذي يتمتع بجميع الصلاحيات التي تخوله النظر في ذلك.

وزيادة على ما سبق بخصوص أمين الحرفة فله مهام أخرى، منها التنسيق مع شيخ البلد ، وله منزلة خاصة عند الباشا حيث يلتقي به مباشرة و يبلغ آراءه في اجتماع الأمناء، وفي بعض الأحيان كان الباشا يكلفه شخصيا لفض بعض النزاعات التي تنشأ بين الهيئات الحرفية دون اللجوء إلى الضابط المكلف بذلك بمعية شيخ البلد (مصطفى بن حموش: 168).

ثالثا_ تصنيف الحرف الخاضعة لمراقبة الهيئات:

لا شك أن الحرف الضرورية في أي مدينة مثل الخياطة، وصناعة الأسلحة والبارود وغيرها كانت موجودة في الجزائر، وأن معظم المشتغلين بها كانوا من الأسرى المسيحيين. (Diégo de Haedo, 2007, 107)، إذن هؤلاء هم من يقومون بأعباء النشاط الاقتصادي كاملا أي الإنتاج الحرفي، ثم تسويقه عند اكتماله في هيئة جيدة. كما كان لهم دور لا يستهان به في مجتمع المدينة (أندريه ريمون، 1991، 68). ومن ضمن هذه الحرف التي برعوا فيها وكانت خاضعة لرقابة الهيئات الحرفية صناعة النسيج، والجلد، والحرير، وفن التطريز، والحدادة، والمعادن، والخشب، والفخار وهلم جرا ((venture de paradis, 2006, 36-9). والجدير بالتنويه هو أنها كانت جميعا منظمة تنظيما في غاية الدقة، وفي إطار هيئة حرفية تمارس نشاطها في ورش خاصة. وعليه نقدم البعض منها فيما يلي:

1_ الصناعة النسيجية:

صناعة النسيج من أهم الحرف التي لازمت العثمانيين ومورست على أوسع نطاق بمدينة الجزائر في الفترات ما بين القرون

حليم سرحان
halim.serhane@univ-msila.dz

السابع الحادي عشر الهجريين الثالث عشر السابع عشر الميلاديين. وهذا نتيجة وفرة المواد الأولية الحيوانية من الحرير، والصوف، والفرو، والوبر. أما المواد النباتية فكانت من الكتان، والقطن (جيريت ميتزون، 2011، 37). وفي حالة نقصها تغطى الحاجيات من المواد الخام باستيرادها من الدول الأوروبية كما جرت عليه العادة بناء على اتفاقيات ومعاهدات (Eugène Plantet, 1981, 16). وقد عرفت صناعة الأحزمة، والمناديل، والشالات المنسوجة رواجا كبيرا، وكانت المنتجات الحريرية ذات الأصل المحلي، أو الآتية من مدينة إزمير التركية تسوق إلى الدول المشرقية والأوروبية لجودتها. وتباع بأسعار أغلى من مثيلاتها الفرنسية والإيطالية. بحيث لا توجد بضاعة أوروبية تضاهي هذه المنتجات النسيجية (وليام شالر، 1982، 93).

والجدير قوله أن هذه الحرفة حظيت بالاهتمام والرعاية من طرف حكام مدينة الجزائر، ويتجلى ذلك الاهتمام في تعيين المحتسب للنظر في شؤون الأسواق ومراقبة رقع الحرير المطرزة التي يبالغ بعض الصناع في إدخال مواد أخرى عليها لإكسابها رونقا جذابا كالخلط من القطن والكتان بغية رفع أسعارها والاحتيال في بيعها الأمر الذي يتطلب تدخل أمين الأمناء للنظر بنفسه فيما سيتخذ من قرار بشأن العمل المغشوش لأجل إتلافه ومعاقبة المخالفين للقوانين والأعراف المرعية (سرحان، 2014، 114).

2_ دباغة الجلود:

حظيت دباغة الجلود بالاهتمام والرعاية من لدن الحكام، ولقيت منتجاتها رواجا كبيرا وجودة لا تضاهيها إلا الجلود المصنعة المعروفة بالفيلالي والقرطبي ذات الأصول المغربية الأندلسية. ويدعم هذا الرأي وليام شالر بقوله: " ودباغة الجلود وصقلها على الطريقة المغربية، تبدو في هذا البلد قريبة من درجة الكمال" (وليام شالر،1982، 94). وهو يقصد هنا مدينة الجزائر.

وكان الدايات متعودون على زيارة مدينة الجزائر كل سنة، وحينما كان ينقصهم مقدار من مال الجزية المفروضة عليهم تقديمها وتسليمها في إطار التشريفات السلطات المركزية، إذ ذاك يجبرون على تسديد المبالغ المستحقة بمقدار ما يعادلها من الجلود المجلوبة من إقليم حكمهم إيفاء لذلك الغرض. والأكيد أن الأجانب كانوا يحصلون على ترخيص من الباشا نفسه للتزود من مادة الجلد ومنتجاتها. (الرسالة، 16).

3_ صناعة الألبسة:

كانت مدينة الجزائر تتحكم في صناعة بعض الألبسة خاصة الشاشية التي تعد شائعة الاستعمال وسط سكان شمال إفريقيا، والسراويل، والبرانس المصممة من الحرير، أو الصوف بلغت درجة الإتقان (وليم سبنسر، 2007، 145). ولا ريب أن الصناع المهرة من الخياطين والطرازين كانوا من طائفة اليهود التي احتكرت تصميم الألبسة التقليدية والحديثة للجزائريين من الجنسين فلا يوجد نظير هؤلاء الحرفيين من بين الأهالي الذين بمقدورهم إدخال أنماط وطرز مبتكرة (Georges Marçais, 1930, 2). إن منتجات الحياكة والخياطة كادت تغطي احتياجات جميع السكان، وجنود الإنكشارية. وتجسدت هذه المصنوعات في الأحزمة الحمراء، والصدريات، والجبات، والقلنسوات، والقفاطين، والغليلات، والحياك وما إليها (Mahfoud Kaddache, 2002, 16).

4_ صناعة السفن:

مارس العثمانيون في الجزائر بداية من سنة (920ه/ 1514م) دورا مهما في انبعاث النشاط الملاحي في البحر الأبيض المتوسط، حيث تأججت الرغبة في بناء أساطيل قوية مما شجع العاملين في الترسانة على مواكبة تطورات تقنية بعد ارتباط خير الدين بربروس بالدولة العثمانية سنة (924ه/1518م) الشيء الذي ساعد على قيام صناعة السفن التي عرفت تطورا ملحوظا واكب مختلف المراحل التاريخية التي مر بها الحكم العثماني في الجزائر. وقد حرصت الدولة بتزويد حاجيات دور الصناعة من مواد أولية عبر معاهداتها مع الدول

الأوروبية تطالبها فيها أن يكون جزء من إتاواتها من تلك المواد الضرورية (ابن ميمون، 1981، 42).

5_ صناعة المدافع:

حظيت صناعة المدافع التي تعد من الصناعات المعدنية الثقيلة باهتمام الحكام، وكانت تابعة مباشرة للبايلك فخصصوا لها دار النحاس بالقرب من باب الواد، وجلبوا لها أمهر الحرفيين من خارج البلد (Moulay Belhamissi, 1990, 67-70). ويقابل هذه الدار ورشات صناعة القوالب والقنابل الضخمة المتنوعة والمكملة لتلك الصناعة زيادة على المواقد التي تصنع فيها المقذوفات المختلفة. وقد كان يدير هذه الدار خبير فرنسي في صنع المدافع يدعى فرانسوا دوبون. وكان النحاس يجلب من مناجم الأطلس المتيجي الواقعة بجبل موزاية، وموقع المعدن. إلا أن هذه الصناعة تراجعت بشكل كبير بداية من سنة (1224ه/1808م) ولم يعد يصنع بعد ذلك ولا مدفع واحد (capitaine Boutin, 1830, 48-49).

خاتمة:

لا شك أن الهيئات الحرفية بمدينة الجزائر تحت الحكم العثماني ساهمت في تنظيم مختلف الحرف، والصنائع وترتيبها حسب الأولوية، كما كان لها الفضل في انتعاش وتيرة الاقتصاد المنتج الذي عرف ركودا واضحا في بعض الفترات التي حظيت فيها أعمال الغزو البحري بالاهتمام من لدن الفاعلين في دواليب السلطة المركزية. زيادة على تدعيم احتياطي خزينة البلد من مستحقات ضريبية إضافية تقدمها الهيئات الحرفية للسلطة المركزية تبعا لأحكام الشريعة الإسلامية، والقانون السائد آنذاك، وهذا بصفة منتظمة. وقد انعكس الأمر على مختلف الحرف بتزايد اقتناء المنتجات المحلية، وتوفيرها بقصد تصديرها خارج المدينة المنتجة لها. والخلاصة الختامية التي توصلنا إليها عبر هذه الدراسة تجسدها النقاط التالية:

_ كشفت هذه الدراسة بشقيها النظري، والتطبيقي عن سيطرة الحكام من بايات، ودايات وأمثالهم في تسيير بعض الحرف التي كان لها ارتباطا وثيقا بالسيادة مثل بناء السفن، والمدفعية.

_ تقوية وتنظيم الهيئات الحرفية بترؤس الأمناء لها، ومساعدتهم للمحتسب في مراقبة العمل الحرفي خاصة في ناحية الإنتاج، والتسويق بطريقة ساهمت في ضمان حقوق الحرفيين والمستهلكين ودعم النشاط الاقتصادي بعد تراجع نشاط البحرية الجزائرية. كما كان لهؤلاء مهمات خاصة في المجالين الاقتصادي، والاجتماعي وهي متنوعة، فهم من يتكلمون باسم المنخرطين في الحرفة والساهرين على السير الحسن لها وعلى نوعية المنتجات.

_ إسهام الهيئات الحرفية بجميع أطيافها بالأداء الضريبي المفروض أسبوعيا أو شهريا أو سنويا من طرف خزينة الدولة بما تحمله هذه العملية من إيجابيات في مؤازرة الاقتصاد أو المجهود الحربي لعساكر الجيش. اعتمادا على سلطة متولي السوق، أو أمين الحرفة وسلطة شيخ البلد الذي يحرس بنفسه على صب المحصول الضريبي في الخزينة العامة للدولة بمدينة الجزائر.

*** المراجع:**

_ ابن ميمون، (1981)، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، وتقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

_ أحمد السليماني، (1994)، **النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني**، مطبعة دحلب، الجزائر.

_ أ. ليسور وويلد، (2010)، **رحلة طريفة في إيالة الجزائر**، تقديم وتعليق وترجمة محمد جيجلي، ط3، دار الأمة، الجزائر.

_ أندريه ريمون، (1991)، **المدن العربية الكبرى في العهد العثماني**، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.

_ جيريت ميتزون، (2011)، **يوميات أسر في الجزائر 1814م-1816م** ، تعريب محمد زروال، دار هومة، الجزائر.

_ حليم سرحان، (2015-2014)، **الأزياء العسكرية الزيانية والعثمانية بالجزائر**، رسالة دكتوراه في الآثار الإسلامية، إشراف أ.د صالح بن قربة، معهد الآثار، جامعة الجزائر 02 – أبو القاسم سعد الله.

_ الرسالة رقم، 16، المحفوظة ضمن مجموعة الوثائق الأرشيفية تحت رقم، 1641 تاريخ 1163-1164ه/ 1750م بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

_ الرسالة رقم،55، المحفوظة ضمن مجموعة الوثائق الأرشيفية تحت رقم، 3190، بتاريخ 1206ه/1792م، بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

_ سهيل صابان، (2000)، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2000.

_ عبد الهادي النجار(1983)، **الإسلام و الاقتصاد**، سلسلة كتب عالم المعرفة العدد: 63، إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت.

_ عائشة غطاس، (2007)، **الحرف والحرفيين بمدينة الجزائر 1700- 1830 مقاربة اجتماعية اقتصادية**، منشورات و.و.ن.إ، الجزائر.

_ عبد الرحيم عبد الرحمن، (1982)، **المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798) دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية**، منشورات المجلة التاريخية المغربية و ديوان المطبوعات الجامعية، تونس.

_ عبد العزيز لعرج، (2008)، **" البرانية بمدينة الجزائر في العصر العثماني جماعة الجيجلية نموذجا"**، الملتقى الوطني لولاية جيجل،

نشر ضمن كتاب أضواء على الآثار و التراث الثقافي لولاية جيجل، وزارة الثقافة.

_ علي تابليت، (2006)، **الرايس حميدو أميرال البحرية الجزائرية 1770-1815**، منشورات ثالة، الجزائر.

_ لويس ماسينيون، (1973)، " **الهيئات الحرفية والمدينة الإسلامية** "، ترجمة أكرم فاضل، مجلة المورد، العدد الثالث، المجلد الثاني، وزارة الإعلام، العراق.

_ محمد الشناوي، (1980)، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

_ محمد الشويهد، (2006)، **قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117ه/1695-170م)**،تحقيق وتعليق، ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

_ مصطفى أحمد بن حموش، (1999)، **المدينة و السلطة في الإسلام " نموذج الجزائر في العهد العثماني "**، دار البشائر للطباعة و النشر، دبي.

_ مهم دفتري علبة رقم، 30، حكم 1048، تاريخ979 ه/1571م.

_ ناصر الدين سعيدوني، (2009)، **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط2، دار البصائر، الجزائر.

_ نور الدين عبد القادر، (2006)، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، دار الحضارة، الجزائر.

_ هاينريش فون مالتسان، (2008)، **ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا**، ترجمة أبو العيد دودو، دار الأمة، الجزائر.

_ وليم سبنسر، (2007)، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر.

_ وليام شالر، (1982)، **مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**، تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

_ Albert devoulx , (1852), **Tachrifat recueil de notes Historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger,** imprimerie du gouvernement, Alger.

_ André Raymond , (1979), **« La conquête ottomane et le développement des grandes villes arabes »**, revue de l'occident musulman et de la mediterranée , n°27, France. Pp,

_ André Raymond, (1981), **« Le centre d'Alger en 1830 »**, revue de l'occident

musulman et de la méditerranée, n°31, France., pp, 73-84.

_ Capitaine Boutin, (1830), **Aperçu historique, statistique et topographique sur L'état d'Alger a l'usage de l'armée expéditionnaire d'Afrique,** 2° édition, J, pinard imprimeur du roi, France.

_ Corinne chevalier, (1986), **Les trente premières année de L'état d'Alger** 1510-1541, o,p,u, Alger.

_ Diego de Haedo, (2007), **Topographie et Histoire générale D'Alger,** traduction de l'espagnol et notes de A. Berbrugger, 3° , édition, grand Alger du livre, Alger.

_ Eugène Plantet, (1981), **correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579-1833,** T°1, éditions Bouslama, Tunis.

_ Georges Marçais, (1930), **Le Costume Musulman d'Alger**, Librairie Plon, paris.

_ Mouloud Gaid, (1991) , **L'Algérie sous Les Turcs**, éditions Mimouni, Alger.

_ Laugier de tassy,(1725) , **Histoire du royaume d'Alger, avec l'état présent de son gouvernement, de ses forces de**

terre et de mer, de ses revenus, police, justice politique et commerce, chez Henri du Sauzet, Amsterdam.

_ Mahfoud Kaddache, (2002), **L'Algérie durant La période Ottomane,** O.P.U. , Alger.

_ Moulay Belhamissi, (1990), **Alger La ville aux mille canons**, E.N.A.L., Alger.

_ Roger Le tourneau, (1957), **Les villes Musulmanes de L'Afrique du nord**, la maison des livres, Alger.

_ Venture de paradis, (2006), **Alger au XVIII° siècle (1788-1790), mémoire notes et observations d'un diplomate espion,** grand Alger du livre, Alger.

_ Xavier Yacono, (1966), « **La régence d'Alger en 1830 d'après L'enquête des commissions de 1833-1834 »,** revue de l'occident musulman et de la mediterranée,n°1, France., pp, 229-244.

للإحالة على هذا المقال:

- سرحان حليم، (2022«**الهيئات الحرفية بمدينة الجزائر في العهد العثماني**» . **المواقف**، المجلد: 17، العدد: خاص، جانفي 2022، ص. ص 792- 809.